نشأة المدن الإسلامية من خلال مدن المغرب الأقصى (فاس- سبتة- مراكش- الرباط)

سليم محمد الشريري[1]
كلية الآداب/ جامعة مصراتة

عبد الله سالم بازينة[2]
كلية الآداب/ جامعة مصراتة

الملخص:

ملخص البحث

هذا البحث المعنون بـ "نشأة المدينة الإسلامية من خلال مدن المغرب الأقصى"، والذي يتناول دراسة تاريخية لبعض مدن المغرب الأقصى وهي: "فاس-سبتة-مراكش-الرباط".

هذه المدن التي تأسست بعد الفتح الإسلامي باستثناء سبتة القديمة، والتي يُذكر بأنها بنيت مكان مستعمرة فينيقية قديماً، إلا أن هذه المدن كان لها الدور الكبير في نشر الثقافة الإسلامية، فكانت تمثل الإرث الحضاري العميق من حيث عمرانها، وإنشاء مراكز إسلامية بها، كانت محور إشعاع علمي إسلامي.

إذ تكمن أهمية الدراسة بالتطرق إلى التاريخ الحضاري الإسلامي المتعلق بالتمدن، وكيفية اختيار أماكن إنشاء هذه المدن وطبيعتها وإدارتها وتطورها في التوسع العمراني.

واتبعنا في هذه الدراسة المنهج التاريخي والوصفي أحياناً، بتتبعالأحداث وتحليلها مع وصف المدن ومراعاة التسلسل الزمني.

الكلمات المفتاحية:
(المدن الإسلامية، فاس، سبتة، مراكش، الرباط)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي جعل تاريخ الأولين عبرة للآخرين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإيمان إلى يوم الدين **وبعد:**

إن التأثير الهائل واللامحدود الذي أحدثه الفتح الإسلامي، قد تجلَّت نتائجه المثمرة في نشره، ومن تم استقراره، وذلك بظهور العديد من السمات الحضارية لهذا الدين، والتي من أهمها بناء وإنشاء المدن.

لقد نشأت المدن الإسلامية والتي تحمل الطابع الإسلامي المتمثل في منهاج الإسلام ومبادئه، وإلى التطور والتفكير واستخدام العقل وبذل كل الجهود في سبيل تقدم الحياة وازدهارها، وخاصة في الجانب الفكري المؤدي إلى التبحر في العلوم والفنون والآداب.

وقد ظل العالم الإسلامي وخاصة المغرب بكثير من المدن والمراكز التي حملت راية الحضارة الإسلامية وبثتها في كثير من أرجاء العالم.

إن المدينة الإسلامية تعرضت إلى الكثير من التشويه، من قبل العديد من المستشرقين في كتاباتهم وأبحاثهم، حيث صوروا المدينة الإسلامية على أنها من المدن التي قامت دون تخطيط مسبق، جعلها ضمن المدن العشوائية أو العفوية، وصولاً إلى المدن الفوضوية ذات الأزقة الضيقة المتيهة والتي يحتاج الزائر إليها لمرشد حتى لا يضيع في المدينة، بالإضافة لعدم تلبيتها للاحتياجات المطلوبة للسكان.

(1) s.elshriri@art.misuratau.edu.ly

(2) a.bazina@art.misuratau.edu.ly

استلمت الورقة بتاريخ 23 نوفمبر 2020، وروجعت بتاريخ 04 ديسمبر 2020، وقبلت بتاريخ 05 ديسمبر 2020، ومتاحة على الانترنت بتاريخ 09 ديسمبر 2020

من هنا ولأهمية هذه المدن والمراكز الثقافية الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي عامة، وبلاد المغرب الأقصى خاصة، رأينا أن يكون عنوان البحث: "نشأة المدينة الإسلامية من خلال مدن المغرب الأقصى" للبحث عن هذه المدن الإسلامية "فاس-سبتة-مراكش-الرباط"، من حيث إنشاءها ومؤسسيها، ثم الدور الحضاري الذي لعبته باعتبارها مراكز لنشر الثقافة الإسلامية في المغرب، ومنه إلى بقاع العالم الأخرى.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في الغرض الإنشائي للمدن، أي ما يستلزم من قيامها سواء أكان للضرورة العسكرية لمواصلة الفتح الإسلامي، أم لمستلزمات اقتصادية.

وبذلك تتناول الجوانب الحضارية الإسلامية لبعض الحواضر المغربية على اعتبار أنها من قواعد الإسلام الحضارية، والتي تسير جنباً لجنب في تكوين الإرث الحضاري في شقه المتعلق بالتمدن الإسلامي، وفلسفة اختيار أماكن ومواضع هذه المدن، وطبيعتها وإدارتها، وتطورها في التوسع، إذ يمكن تفهم التمدن الحديث والمعاصر في ضوء دراسة التكوين التاريخي للتمدن المنطلق من هذه المدن.

أهداف الدراسة:

- تهدف هذه الدراسة إلى إبراز المبادئ والأسس التي قامت عليها المدينة الإسلامية، وكيف أنها حققت المتطلبات الإنسانية للسكان، وتحقيقها مبادئ الاستدامة والتي ينادي بها العالم حديثاً.
- كما تهدف هذه الدراسة لتبيين الدور الذي لعبته هذه المدن بمراكزها الإسلامية في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية الدينية والعقلية، والنهوض بالحضارة الإسلامية كوسيلة في انتقال هذه الحضارة إلى أوروبا وأفريقيا وغيرها من بقاع الأرض.
- إظهار الإرث الحضاري العميق لهذه المدن التي تشكل بوتقة فنية بصبغة إسلامية، سواء أكانت في المعمار الإسلامي للمساجد والمدارس والقصور وغيرها.

منهج الدراسة:

اتبعنا في هذه الدراسة المنهج التاريخي، وتتبع الأحداث التاريخية والتسلسل الزمني في بناء هذه المدن.

وسنقسم البحث إلى مقدمة تناولنا فيها نبذة موجزة عن البحث وأهميته وأهدافه، ثم سنتناول المدن الإسلامية في المغرب الأقصى أولاً بأول، حسب تاريخ إنشائها وإعمارها، وسنبدأ بفاس من حيث بناء فاس ثم الحياة الفكرية والثقافية لفاس، ثم مدينة سبتة ووصف المدينة، والحركة العمرانية بها، ثم سنتكلم عن مدينة مراكش وبنائها، ثم الحركة العلمية بالمدينة، وأخيراً مدينة الرباط من تاريخ إنشائها والحركة الفكرية بها، ثم المنشآت المعمارية، واختتمنا البحث بخاتمة تناولت أهم النتائج التي توصلت لها الدراسة.

نتمنى من الله العلي القدير أن نكون قد وفقنا في مسعانا، وما توفيقنا إلا بالله، والله ولي التوفيق.

أولاً- مدينة فـــــــــــاس:

بناء فاس:-

بعد أن تلقى الإمام إدريس الثاني البيعة عام 188هـ/803 م، استقام له الأمر فكثر الوافدون عليه من الأندلس وإفريقيا حتى ضاقت بهم مدينة وليلى[1] ذات البناء القديم، والتخطيط البسيط، فرأى الإمام أن يهب دولته عاصمة جديدة ذات طابع عربي يسكنها مع حاشيته وجنوده[2].

فخرج مع هيئة الدولة لانتقاء المكان المناسب عام 1990هـ/805 م، فوصل إلى جبل زالغ، فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته، فقرّر أن يبني مدينة هناك، ولكن هطول الأمطار بغزارة وحدوث سيل من أعالي الجبال مما جعل الإمام إدريس عندئذ يكف عن البناء ويعود إلى وليلي[3].

وفي شهر محرّم سنة 191هـ/806 م خرج الإمام ثانية يرتاد موضعاً لبناء عاصمته، فانتهى إلى حمة خولان في وادي نهر سبّو فأعجبه موضع الحمّة لقربها من الماء، ولكن بعد أن تفحّص المكان جيداّ عُدِلَ عن البناء، بعد أن تبين له أن المياه تصل إلى المكان شتاءً، فخاف على الناس من الهلاك وعاد إلى وليلي ثانية[4].

ثم بعث الإمام وزيره عمر بن مصعب الأزدي ليرتاد موضعاً للمدينة المنشودة، فسار عمر في جماعة من قومه، اخترق النواحي المجاورة لوليلي حتى وصل على فحص سايس، وقد أعجبه المكان لكثرة مياهه واعتدال هوائه، ومروجه الخضراء وتفحّص عمر المكان، وشرب من مائه، ورأى في المكان خيام شعر تُقيم فيها قبائل بربرية من زناتة وزواغه وبني يزغتن، فرجع عمر وأخبر الإمام إدريس بالأرض التي استحسنها[5].

خرج الإمام بنفسه ليطلع على المكان ويتفحّصه فأعجبه، واستقدم السكّان المقيمين هناك وكانوا في قتال بينهم بسبب تباين أديانهم، فمنهم المسلمون واليهود والنصارى والمجوس، فاشترى أولاً موضع عدوة الأندلسيين من بني يزغتن بألفين وخمسمائة درهم، ثم موضع عدوة القرويين من بني الخير الزواغيين بثلاثة آلاف وخمسمائة درهم، وكتب العقد بشراء الأرض الكاتب الفقيه أبوالحسن عبدالله بن مالك الخزرمي الأنصاري وذلك سنة 191هـ/807م[6].

وبعد أن تمّت عملية شراء الأرض نزلها الإمام إدريس فخطّط المدينة، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: "اللهم اجعلها دار علم وفقه، يتلى بها كتابك، وتقام بها سنتك وحدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ماأبقيتهم، بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين"[7].

ثم شرع في البناء نهار الخميس غرّة ربيع الأول سنة 192هـ/808 م، فأخذ المعول وبدأ يحفر أساس السور، ثم تبعته العمال بعد ذلك، فابتدأ ببناء السور من جهة القبلة، ثم انصرف بعد أن أتمه إلى بناء الجامع، فأقامه قرب رحبة البير، دعاه بجامع الأشياخ،ولما فرغ الإمام من بناء المدينة أنزل بها القبائل، كل قبيلة بناحية، فنزل العرب القيسية في عدوة القرويين من باب أفريقيا إلى باب الحديد، ونزل

([1]) وليلي: مدينة في المغرب قرب طنجة دخلها إدريس بن عبدالله ناجياً من معركة(فخ) سنة172هـ في أيام هارون الرشيد وبقى فيها إلى أن مات مسموماً سنة174هـ = الحموي، شهاب الدين أحمد، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1990م)، 384/5.

([2]) المصدر نفسه، 230/4

([3]) القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،المؤسسة الوطنية للتأليف، (القاهرة، 1963م)، 181/5.

([4]) سعدون عباس نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب، دار النهضة، (بيروت، 1987م)، ص151.

[5] السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، (الدار البيضاء-1968م)، 165/1.

([6]) ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1956)، 113/4.

([7]) المصدر نفسه، 114/4.

الأزد على حدّهم إلى ناحية باب الحديد، واليحصبيون والفرس على حدّهم باب أفريقيا، وترك العرب القادمون من القيروان في الناحية المخصصة لهم، وفي عدوة الأندلسيين أنزل الإمام قبائل البربر صنهاجة ولواته ومصمودة مع الأندلسيين.

وسمّى الإمام مدينته الجديدة باسم "فاس" وقد تعددت الروايات بالنسبة للتسمية، منها أن الإمام لما شرع في حفر أساس السور كان يحفر بواسطة فأس ولكثرة تردد الكلمة أطلق عليها اسم فاس بدون همزة[1].

ورواية ثانية تذكر أنه لمّا أتم الإمام البناء قيل له ماتسمّيها؟ قال: باسم المدينة التي كانت مكانها والتي أخبرني عنها راهب بأنها كانت تسمى"ســاف"، ولكنّني أقلب اسمها الأول وأسميها بمقلوبه فجاء منه اسم فاس[2].

وقد ورد في وصف هذه المدينة عديد الرحّالة والكتّاب، منهم الرحّالة الجغرافي الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وإذ يذكر فيها:

"وبمدينة فاس صنّاع ومعايش ومبانٍ سامية، ودور وقصور ولأهلها اهتمام بحوائجهم، وفيما بينهم وجميع آلاتهم، ونعمة كثيرة والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً، دون غيرها من البلاد القريبة منها، وبها فواكه كثيرة، وخصبها زائد، وبها في كل مكان منها عيون نابعة، ومياه جارية وعليها قِبابٌ مبنية، ودواميس محنية، ونقوش وضروب من الزينة، وبخارجها الماء مطرود من عيون غزيرة، وجهاتها مخضرّة مونقة، وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة، وفي أهلها عزه ومنعه.......

ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى، وحضرتها الكبرى ومقصدها الأشهر، وعليها تشد الركائب وإليها تقصد القوافل"[3].

وقيل فيها عديد الشعر في مدحها ومحاسنها:

يـا فاس منك جميع الحسن مشرق ... وساكنوك ليهـنـهـم لـقـد رزقـوا
هـذا نـسـيـمـك أم روحٌ لـراحـتـنا ... ومـاؤك السلسل الصافي أم الـورق
أرض تخللها الأنـهـار داخـلـهـا ... حتـى المجالس والأسواق والطرق
يا فـاس حتـى الله أرضك من ترى ... وسقـاك من صوب الغمام المسبل
غُرفٌ على غُـرفٍ ويـجـري فتحها ... ماء ألذّ من الـرحـيـق الـسلـســل
وبجامع القرويين شـرف ذكـــــره ... أنس تذكره يــهـيـج تـمـلـمـلـي[4]

ويذكر الجزنائي أيضاً في محاسنها، قرب المعادن لها والصلصال، وأنواع الحجارة، والرمال وغيرها، وذلك على اختلاف أنواعه ميَّسر للناس في منافعهم، ولها نهر يسمى بنهر "الجوهر" وهو نظير لصفاته وعذوبة مائه، وخفته وبرودة عيونه في زمن الصيف، وسخونتها في زمن الشتاء، وهو يسخن سريعاً ويبرد سريعاً، وينهضم سريعاً، وهذه الصفات محمودة عند الأطباء، ويخرج منه الصدف الثمين الذي يقوم مقام الجوهر، لذلك سمي نهر الجوهر، ومن منافعه أنه يفتت الحصى التي تكون في

(1) السلاوي، المصدر السابق، 167/1.

(2) سعدون عباس نصر الله، المرجع السابق، ص158.

(3) الإدريسي، محمد بن عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة، 1984م)، 186/2.

(4) الجزنائي، علي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، (الرباط،1991م)، ص33-34.

المثانة، ويزيل الصبيان من الرأس لمن اغتسل به وداوم على شربه، ويلين البشرة ويغسل به الثياب دون صابون فيبيضها ويكسوها رونقاً وروائح طيبة[1].

وقد توالت على مدينة فاس العديد من الدول فبعد سقوط الأدارسة سنة 313هـ/925م، على يد موسى بن أبي العافية، الذي انتقم من الأدارسة وأجلاهم عن موضعهم وسيطر على فاس، حتى سيطرت زناتة عليها ودانت بالطاعة والولاء لبني أمية في قرطبة، وعند ذلك غضب المعز لدين الفاطمي وسيّر جيشاً بقيادة قائده جوهر الصقلّي، وحاصر فاس التي استعصت عليه مدة حتى فتحها بمساعدة زيري بن مناد[2].

وظل النفود الفاطمي بفاس إلى أن أرسل الخليفة المستنصر قائده غالب إلى المغرب الذي دخلها سنة 363ه/973م، ولم تمض سنوات حتى زحف عليها بلكين بن زيري الصنهاجي، وبقت في حكم صنهاجة وبني يفرن، مرّة تحت سيطرة الفاطميين وأخرى تحت لواء الأمويين بقرطبة، إلى أن زحف على فاس يوسف بن تاشفين الذي افتتحها سنة 461ه[3].

وبقيت تحت حكم المرابطين إلى أن حاصرها عبد المؤمن بن علي حصاراً شديداً استمر تسعة أشهر ثم دخلها عبد المؤمن بن علي سنة 540ه/1145م، وبقيت تحت حكم الموحدين إلى أن سقطت دولتهم وورث فاس بنومرين[4].

الحياة الفكرية والثقافية بفـــــــاس:-

بفضل الاستقرار الذي منحه الدراسة للمغرب، أضحت فاس قبلة أنظار المسلمين، فقصدوها من الشرق والغرب، وكانوا على درجة كبيرة من الثقافة، وأدى ذلك إلى الاهتمام بالعلوم والآداب التي شجعها الأئمة بتقرّبهم من المثقفين عرباً وبربراً، وتلي تلك المرحلة التأسيسية مرحلة إقامة المعاهد الثقافية والشرعية، وفي مقدّمتها جامعة القرويين، والتي تعدّ أقدم جامعة ماتزال قائمة في العالم، إذ تم إنشاؤها في القرن الثاني الهجري/التاسع الميلادي، مما جعل من فاس مركز الإشعاع الشرعي والفكري والثقافي والفني، إذ بقيت وفية لذكرى مؤسسيها الأوائل الذين أرادوها دار علم وفقه[5].

وجامع القرويين هو أكبر جامع في مدينة فاس، وكان جامعاً صغيراً أنشأه إدريس الثاني سنة 808م، وكان اسمه جامع الإشراف حتى قامت فاطمة الفهري من القيروان، الانفاق على توسعة المسجد سنة 857م، وأصبح الصحن أكثر اتساعاً، وتم بناء جناحين له في الحرم، وأقيم للمسجد محراب ومنبر جديدان، وبنيت المئذنة الشامخة[6].

وفي عهد المرابطين قام ابن تاشفين بتطوير وتوسيع وسط المدينة وكذلك الجامع الذي وجده فيها، وقد جهَّزه أحسن تجهيزا وأكثر حيوية وهكذا صارت فاس حاضرة مركزه كما يجب، وقد حقق يوسف بن تاشفين بذلك عملاً سياسياً ودينياً، فضلاً عن ذلك أمر ببناء فنادق وطواحين، وكان قد جلب إلى فاس صنّاعاً من قرطبة، وفضلاً عن ذلك عمل ابن تاشفين على تحويل فاس إلى قاعدة عسكرية، وشيّد بها الحصون والأسوار والقصور، حيث أصبحت القاعدة الرئيسية لعملية إمبراطورية كبيرة، ومن تم بها

(1) المصدر نفسه، ص35

(2) ابن الأثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، دار صادر، (بيروت، 1966م)، 354/6.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، 188/5.

(4) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير في العصر الإسلامي، دار النهضة، (بيروت،1981م)، 530/2.

(5) نصر الله سعدون عباس، المرجع السابق، ص171.

(6) عفيف البهنسي، العمارة العربية، المجلس القومي للثقافة، (الرباط، د.ت)، ص131.

الزحف إلى الشرق للسيطرة على عدة مدن مثل: "تازا، ملوية، تلمسان، وحتى الجزائر"، فكان ينطلق منها لإخضاع قبائل الريف وإغاثة المسلمين المضطهدين من طرف المسيحيين بإسبانيا[1].

وازدهرت فاس في عصر المرابطين والموحدين ازدهاراً كبيراً لم تشهده من قبل، بأن تكون العاصمة الفعلية للمغرب كله في عصر هاتين الأسرتين، ويذكر عبد الواحد المراكشي: "مدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب... وموضع العلم فيه، اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة....فلما اضطرب أمر القيروان بعبث العرب فيها، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه، رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة، فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها غاية الكيّس، ولغتهم أفضل اللغات في ذلك الإقليم، ومازلتُ أسمع المشايخ يدعونها بغداد العرب..."[2].

وفضلاً عن المرينين عند مجيئهم كانوا قد أحدثوا تطوراً في نظام التعليم بمدينة فاس، فكان التعليم يلقّن بدون شك في المساجد، أو في أهمها على الأقل، مثل: جامع القيروان، جامع القرويين، جامع الأندلس، لكن مثل هذا النظام كان من شأنه أن يستبعد مادياً الطلبة الغرباء عن فاس، أو الذين ليست لهم اتصالات تمكنهم من الحصول على سكن، فقرر المرينيون إحداث مؤسسات خاصة يجد فيها شبان البوادي السكني والطعام والغذاء الفكري.

ومن أهم هذه المدارس وأولها مدرسة "الصفارين"، الواقعة بين جامع القرويين والوادي، وسط دكاكين الصفّارين، وثانياً مدرسة فاس الجديد، ومدرسة ثالثة بالقرب من جامع الأندلس، ومدرسة رابعة بجانب جامع القرويين، في مدخل سوق العطارين[3].

وقد نُسب إلى فاس جماعة من أهل العلم منهم: أبو عمر عمران بن موسى بن عيسى بن نجح الفاسي، فقيه أهل القيروان في وقته، نزل بها وكان قد سمع بالمغرب من جماعة، وسمع بالمشرق من العلماء، وكان من أهل الفضل والطلب وغيره.

وفي عهد دولة الأشراف العلويين بالمغرب استرجعت فاس عظمتها، وأصبحت حاضرة المغرب في عهد مولاي الرشيد سنة 1077ه/1666م، وأنشأ بها مساجد جديدة، فظلّت فاس منذ ذلك الحين المدينة الأولى في المغرب[4].

([1]) روجي لوطونوا، فاس قبل الحماية، (بيروت، 1992م)، 151/1.

([2]) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، 529/2.

([3]) روجي لوطورنوا، المرجع السابق، 106/1.

([4]) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، 529/2.

ثانياً- مدينة سبتـــــه:

"بلد مشهور من قواعد بلاد المغرب، ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب مابين البربر والجزيرة"[1].

وهي مدينة حصينة تشبه المهدية[2] التي بإفريقية على ما قيل؛ لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند، وهي ذات أضياف، وخمس ثنايا، مستقلة الشمال وبحر الزقاق، وبينها وبين فاس عشرة أيام[3].

وقد كانت تحت حكم يليان، فلما فتح عقبة بن نافع المغرب كله ووصل إليها، خرج إليه يليان بهدايا وتحف واستلطفه، وكان ذا عقل وتجربة، فأمّنه عقبة وأقره على موضعه، ثم دخلها العرب بعد ذلك بالصلح، وأسلم معظم أهلها، ثم دخلها البربر وخربها، ثم افتتحها عبدالرحمن الناصر، ودخل قائده فرج بن غفير يوم الجمعة لليلة خلت من شعبان من سنة219ه/834م، وأصبح عبد الرحمن يضع الولاة عليها[4].

وصـف المدينة:-

ورد عن ابن حوقل في كتابه صورة الأرض: "بأن مدينة سبته مدينة وافرة غزيرة المياه، وأن ماؤها من داخلها يستخرج من آبار بها معين، ومن خارجها أيضاً من آبار كثيرة عذبة"[5]، وكذلك يجلب إليها الماء من نهر "أويات" على بعد ثلاثة أميال من المدينة[6].

وأما الإدريسي فيذكر بأنها: "مدينة ذات بساتين، وبها أشجار وفواكه كثيرة، وقصب السكر وفير فيها أيضاً"[7].

فضلاً عن ذلك تكثر بها الغابات، وضروب الشجر، كالأرز والبلوط ما يعود في نفعه على ثغر سبتة، ويستعان به على إنشاء المراكب[8].

ويبدو أن صناعة المراكب لهذه المدينة قد لاقت انتشاراً آنذاك، حيث ظهرت العديد من المنجرات بحيث وصلت إلى أربعين منجرة، ماكان له انعكاساً على نشاطها التجاري[9].

وقد ورد عن الأنصاري الذي يُعد أحد مؤرخيها بأنّ مدينة سبته كانت تنعم بالرخاء والازدهار والعمران، وكذلك كثرة الأسواق والحوانيت والفنادق، حيث ذكر بأن عدد أسواقها 174 سوقاً، وأما حوانيتها تصل الأربعة وعشرون ألفاً[10].

([1]) ابن عذاري، أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، س. كولان، المكتبة الأندلسية، (بيروت، د.ت)، 201/1.

([2]) المهدية: مدينة صغيرة استحدثها المهدي القائم بالمغرب، وسمّاها نسبة له، وهي في نحو البحر، وقد تحول إليها من مدينة رقادة القيروان في سنة (308هـ)، وتبعد عن القيروان بنحو مرحلتين = نقولا زيادة، مدن عربية، دار الطليعة، (بيروت،1965م)، ص132.

([3]) الحموي، المصدر السابق، 206/3.

([4]) ابن عذاري، المصدر السابق، 204/1.

([5]) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، (القاهرة، د.ت)، ص79.

([6]) البكري، أبوعبيدة الله، المسالك والممالك، (الجزائر،1957م) ،104/3.

([7]) الإدريسي، المصدر السابق، 528/2.

([8]) أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، (طرابلس،1997م)، ص57.

([9]) الوزان، حسن، وصف أفريقيا، دار الغرب الإسلامي، (بيروت،1983م)، 245/1.

([10]) الأنصاري، محمد بن القاسم، اختصار التاريخ، (الرباط،1983م)، ص27.

ويورد الإدريسي بذكره في وصف وشهرة هذه المدينة بأنها اشتهرت بوفرة أسماكها، حيث يقول: "وبمدينة سبته مصايد للحوت، ولايعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه، ويصطاد بها من السمك نحو مائة نوع"[1].

وفي السياق ذاته ما أكده "الأنصاري" بأن عدد المضارب "أماكن ضرب شباك السمك"، تسعة مضارب، منها ما هو بداخل المدينة ومنها ماهو خارجها، وإجمالاً تفوق هذه المصايد 220 مصيداً[2].

الحركة العلمية بالمدينة:-

يشير ابن عذاري إلى أن أهل سبته عرب وبربر، وهي دار علم، فسبتة كانت من المراكز المغربية التي رفعت مشعل العلم والثقافة العربية الإسلامية[3].

وينسب إليها الكثير من أعيان أهل العلم، منهم: ابن مزانة السبتي، الذي كان من أعلم الناس بالحساب، والفرائض والهندسة والفقه وله تلامذة وتآليف، ومن تلامذته ابن العربي الفرضي الحاسب وهو من سبتة، وكان المعتمد بن عباد يقول: "اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبته ثلاثة نفر: ابن غازي الخطيب، وابن عطاء الكاتب، وابن مرانة الفرضي"[4].

وفي هذا السياق يذكر المؤرخ الأنصاري بأنه كان بمدينة سبته ألف مسجد، وأن عدد الخزائن العلمية بها اثنان وستون خزانة، وأن عدد الرباطات والزوايا سبع وأربعون، مابين زاوية ورباط، وكذلك محارس المدينة فعددها ثمانية عشر محرساً[5].

فضلاً عن وجود المدارس حيث كانت في المدينة مدرستين شهيرتين، مدرسة الشيخ المحدّث "علي الشاري الغافقي السبتي"، والمدرسة الجديدة التي بَناها السلطان المريني "أبوالحسن"[6].

وإجمالاً بأن الحركة العلمية والثقافية كانت قد اتسعت وخصوصاً ماساد من تواصل حضاري مع بلاد الأندلس آنذاك، وخصوصاً على عهد المرابطين والموحدين، وماكان له الأثر في توافد العلماء وتواصلهم بهذه المدينة، وماوصلت إليه من اتساع في المجال العلمي والثقافي في القرنين السادس والسابع الهجري، بحيث كانت أهم المراكز العلمية في السواحل المغربية، وبخاصّة أن هذه المدينة قد أنجبت أكبر شخصية علمية مغربية هو "القاضي عياض"[7]، وكذلك "الشريف الإدريسي"[8] الجغرافي الجغرافي المعروف، الذي وضع أول خريطة رسم فيها العالم، ولازالت هذه المدينة إلى اليوم تتبع السيادة والإدارة الإسبانية، استقلالاً ذاتياً اسمياً للأسف.

([1]) الإدريسي، المصدر السابق، 529/2.

([2]) الأنصاري، المصدر السابق، ص51.

([3]) ابن عذاري، مصدر سابق، 202/1.

([4]) الحموي، المصدر السابق، 206/3.

([5]) الأنصاري، المصدر السابق، ص30-31.

([6]) الطيبي، المرجع السابق، 179/2.

([7]) القاضي عياض بن موسى اليحصبي، كان قد عاصر الدولتين المرابطية والموحدية، ودخل في خدمتهما، وكان له اهتمام بجمع الحديث، حتى أصبح إمام الحديث في وقته، وأعلم الناس بعلومه، وله مؤلفات عديدة في علم الحديث أهمها: كتاب (الإكمال في شرح مسلم، وكتاب مشارق الأنوار) = الذهبي، شمس الدين أبوعبدالله، تذكرة الحفاظ، (بيروت، 1958م)، 1305/4.

([8]) وُلِد بسبته سنة492هـ، وذهب إلى قرطبة في صباه، وتلقى تعليمه هناك، وساح في أناء البلاد، فقد جاب الأندلس ومصر وإفريقية وبلاد المغرب والشام وآسيا وبعض البلاد الأوروبية، وقد استدعاه "روجار" ملك صقلية وكلفه بوضع مصور جغرافي للمعمورة، فصنع أول كرة أرضية من الفضة الخالصة رسم عليها جميع أنحاء الأرض رسماً غائراً، ثم شرح ذلك مفصّلاً في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الأفاق)، وقد استغرق هذا العمل15سنة من البحث والسفر، وتوفي بالقاهرة في شهر صفر من سنة 549هـ/1154م = عبد الله علاّم، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، (القاهرة،1968م)، ص355-357.

ثالثـــاً- مدينة مراكـــش:

بناء مراكش:-

يجمع المؤرخون على أن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش في سنة 454ه/1062م، بعد أن غادر الأمير أبوبكر بن عمر أرض المغرب إلى الصحراء، وتخلّى ليوسف عن الإمارة، وقد استغرق البناء خمس سنوات إلى أن تم سنة 459ه/1067م[1].

واشترى يوسف بن تاشفين موضع مدينة مراكش من جماعة من المصامدة، فسكن الموضع بخيام من الشعر، وأسس مسجداً للصلاة، وقصبة صغيرة لخزن أمواله وسلاحه، لعلها القصر المعروف بقصر الحجر، وعندما شرع في بناء المسجد كان يحتزم ويعمل في الطين والبناء بنفسه مع الخدم، تواضعاً منه وتورعاً، ولم يؤسس بن تاشفين حول المدينة سوراً[2].

وكانت مراكش في بناء أرض صحراوية منخفضة فحفر لها يوسف الآبار وجلب إليها الماء، ولم يكن يحيط بمراكش من الجبال سوى جبل صغير كانت تقطع منه الأحجار التي بنى بها علي بن يوسف قصره، أما عامة البيوت فكانت من الطين واللبن[3].

وسور مدينة مراكش من بناء الأمير علي بن يوسف، بناه في ثمانية أشهر سنة 526ه/1131م، وكان لهذا السور عدة أبواب منها: أبواب أغمات، ودكالة، والدباغين، وسينتان، والصالحة، والشريعة، والمخزن، وظلّت مراكش معسكراً حربياً، وقاعدة عسكرية لقوات المرابطين إلى أن حاصرتها قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي في محرّم من سنة541ه/1146م، ونزل بجبل بغربيّها يسمى جبل الجبلين أو جبل الجليز[4].

وهناك ضرب عبد المؤمن القبة الحمراء ثم زحف جيشه بجموعه إلى مراكش، ووضع عبد المؤمن الكمائن، فخرج جيش المرابطين لملاقاة الموحدين، فتظاهر هؤلاء بالهزيمة، ثم خرجت الكمائن على فرسان المرابطين وسحقتهم سحقاً، وقتل منهم مالا يحصى عدده، واتبع الموحّدون فلول المرابطين بالسيف إلى الأبواب، واحكموا عليهم الحصار[5].

وطال الحصار على أهل مراكش، واشتد الجهد بهم، ولكثرة خيلهم ورجلهم نفذ طعامهم، وفنيت مخازنهم، حتى أكلوا دوابهم، ومات منهم بالجوع، ماينيف عن مائة وعشرين ألفاً، ويذكر ابن

فيها الدروس فيما سبق، وكان كل طالب مقبول بالدراسة ينفق عليه ويكسى مرة في السنة خلدون أن الحصار استمر سبعة أشهر، فلما طال على أهل المدينة، وجهدهم الجوع برزوا إلى مرافقة الموحّدين، فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل[6].

وبقيت مراكش بعد أن دخلها الموحدون لايدخلها داخل ولايخرج منها خارج ثلاثة أيام، ثم نزل عبدالمؤمن مراكش، واتخذها عاصمة لدولته، وأقام فيها الدور، واتخذ القصور وجلب إليها المياه من جهة أغمات لسقاية البساتين التي اتخذها فيها، وأخذ في البناء والغراسة وترتيب القصور[7].

([1]) النويري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب، نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق، محمد جابر، المكتبة العربية، (القاهرة، 1984م)، 210/26.

([2]) ابن خلدون، المصدر السابق، 378/6.

([3]) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، 704/2.

([4]) النويري، المصدر السابق، 215/25.

([5]) ابن خلدون، المصدر السابق، 289/6.

([6]) المصدر نفسه، 479/6.

([7]) الحموي، المصدر السابق، 94/5.

وقد اهتم خلفاء عبدالمؤمن بمدينة مراكش، فأقاموا بها المنشآت العظيمة، وأمهروها بمختلف أنواع المباني، ونخص من هؤلاء بالذكر المنصور الموحدي الذي كان مولعاً بفن البناء، فبنى بمراكش "البيمارستان"، الذي هو من أعظم ما أقيم في العالم الإسلامي، وسُمّي بدار الفرج، وكان يقع إلى الشرق من المسجد الجامع المعروف بالكتبية، وكان قد تخير لبنائه ساحة فسيحة من أجمل مواضع مراكش، وأمر بأن يغرس فيه من جميع أشجار الفاكهة وأجرى فيها المياه[1].

وفي هذه المدينة قصبة كبيرة كأنها مدينة، ذات أسوار سميكة متبينة فتحت فيها أبواب في غاية الحُسن، قوائمها وأعاليها من الحجر المنحوت، ومصاريعها مصفحة بالحديد، وفي وسط القصبة جامع في غاية البهاء تعلوه صومعة متناهية الجمال كذلك، وكان قد اهتم به الموحدين آنذاك[2].

وفي القصبة أيضاً مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة، وسكن مختلف الطلبة تحتوي على ثلاثين حجرة، وقاعة في الطبقة الأرضية، ويتقاضى الأساتذة مرتباً شهرياً قدره مائة أو مائتا مثقال، حسب نوع الدروس المطوقين بإلقائها، ولم يكن يقبل في هذه الدراسة إلا من كان يعرف مبادئ العلوم معرفة تامة.

وهذه البناية أي "القصبة"، مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وفيها أيضاً أحد عشر قصر أًحصيناً في غاية الجودة[3]، يبدوا أن هذه البناية تمثل الحصن الكبير، ولحماية المدينة وأنها في غالب إنشائها تعود إلى المرابطين.

لقد ازدهرت مراكش في عصر الموحدين ازدهاراً لم تشهده من قبل في عصر المرابطين، فاتّسع عمرانها، وزادت مرافقها، وعمرت بمختلف أنواع الأبنية، والمنشآت التي اهتم خلفاء الموحدين بإقامتها، وقد وصفها أحد المؤرخين بقوله: "مدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا بما زاد فيها الخليفة الإمام، وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو يوسف"[4].

الحركة العلمية بالمدينة:-

أصبحت مدينة مراكش بعد فترة وجيزة من بنائها في بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري مركزاً هامًّا من مراكز الثقافة في بلاد المغرب الأقصى في عهد دولة المرابطين والموحدين، وقليلاً في عهد بني مرين، ويرجع الفضل في اعتلائها هذا المكان إلى كونها العاصمة السياسية والإدارية للبلاد، فكانت محط أنظار العلماء والأدباء الوافدين إليها من حين لآخر، حيث كانت تغْدق الأعطيات والهبات من قبل ولاة الأمر آنذاك[5].

وقد أسهم ولاة الأمر بقدمٍ كبير في هذه النهضة بفضل تشجيعهم للعلم والعلماء، ففي عهد المرابطين نجد الأمير "يوسف بن تاشفينٍ" بعد عبوره الأندلس، كانت قد بهرته حضارتها، وتأثر بها إلى حدّ بعيد، فشجع علماءَها وأدباءَها للحضور إلى مراكش، للانتفاع بهم في دولته الوليدة، وفي ذات السياق يشير المراكشي إلى المكان التي وصلت إليها مراكش في هذا العصر بقوله: "فأنقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم"[6].

([1]) السيد سالم، المرجع السابق، 707/2.

([2]) ابن خلدون، المصدر السابق، 245/6.

([3]) الوزان، المرجع السابق، ص132.

([4]) الغناي، قيام دولة الموحدين، جامعة قاريونس، (بنغازي،1980م)، ص167.

([5]) عفيفي محمود إبراهيم، الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب، دار الفكر العربي،(القاهرة،2001م)، ص313.

([6]) المراكشي، عبدالواحد، المعجب في تاريخ أخبار المغرب، تحقيق، محمد سعد العريان، (القاهرة، 1965م)، ص163.

وذكر أيضاً المراكشي في موضع آخر بقوله: "واجتمع له ولابنه ـ يقصد يوسف بن تاشفين وابنه علياً ـ من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من العصور[1].

كما اشتد تعلق "علي بن يوسف" بأصل العلم، حتى أصبح بلاطه بمدينة مراكش لا تخلو من عالم أو فقيه أو أديب، وارتفع شأن هؤلاء الفقهاء فكان (لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء)، وكان بعض الأمراء الذين لا تمكنهم الظروف من الالتحاق بالمدارس والذهاب إلى مجالس العلم والعلماء، يرسلون في طلب أعلام الفقهاء والعلماء إلى قصورهم في مدينة مراكش، فيجلسون إليهم ويأخذون العلم عنهم، ويتفقهون في الدين على أيديهم كما فعل الأمير "إبراهيم بن يوسف بن تاشفين" عندما استدعى الفقيه الجليل الشيخ الصدفي ليسمع عليه الحديث وينتفع بعلمه وفضله.

وكذلك في عهد الموحدين شهدت مدينة مراكش عهداً ثقافياً جديداً يختلف كثيراً عن عهد المرابطين، إذ كانت الثقافة المرابطية في عمومها مستوردة من القيروان والأندلس، أما الثقافة الموحدية التي وضع أساسها المهدي بن تومرت، فقد طبعت بطابع مغربي محلّي[2].

فقد أنشأ عبد المؤمن بن علي في مدينة مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، وكانت تضم زهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء الأكابر في وقت واحد، وكانوا يسمّون طلبة العلم والحفاظ نظراً لأنهم فضلاً عن حفظ القرآن، كانوا يدرسون عدة كتب في إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة[3].

وفي عهد المرينيين ازداد التوسع في التعليم والحركة العلمية، بعد ماكان في بدايته بالمساجد والزوايا والأربطة، حيث قاموا بإنشاء المدارس على نحو لم تعرفه بلاد المغرب من قبل، من حيث اقتحام جميع المنافذ على مذهب الظاهري للقضاء عليه، وقد نجحت هذه السياسة بفضل ماكان لدى الناس من ارتباط شديد بالمذهب المالكي، فما لبث معظمهم أن ترك مذهب الظاهري وعادوا إلى مذهب الإمام مالك، الذي كان يلقى روّاجاً كبيراً في بلاد المغرب الأقصى[4].

حيث كانت مدارس بنومرين كانت تحتوي على قاعة واحدة لإقناع الناس جميعاً بالمذهب المالكي، في أن مدارس الشرق تحتوي على عدة قاعات لتدريس أكثر من مذهب[5].

ومن أهم المدارس في مدينة مراكش مدرسة أبي يوسف الذي شيدها السلطان أبي يوسف يعقوب[6]، وكذلك المدرسة العظمى التي بنيت جنوب المسجد الأعظم الذي بني في عهد الخليفة الموحّدي "يعقوب منصور(595ه/1191م)، وقد بنى هذه المدرسة السلطان أبو الحسن علي المريني، وكانت بشكل متقن، وقد زارها الرحال "ابن بطوطه" الذي وصفها قائلاً: "وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة وهي من بناء أبي الحسن"[7].

([1]) المراكشي، المصدر السابق، ص164.

([2]) عفيفي محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص314.

([3]) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، (القاهرة،1941م)، 51/2.

([4]) سلاح عبدالسلام موسى، الحياة العلمية والثقافية بالمغرب الأقصى في عهد المرينيين، رسالة ماجستير غير منشورة،(جامعة طرابلس،2017م)، ص76.

([5]) السيد عبدالعزيز سالم، بيوت الله مساجد ومعاهد مدارس فاس، مطبعة كتاب الشعب، (القاهرة،1960م)، ص200.

([6]) مؤلف مجهول، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، مطبعة كوبر تل، (الجزائر،1920م)، ص100.

([7]) ابن بطوطة، أبو عبد الله بن محمد بن إبراهيم، تحفة النظار في غرائب المصار وعجائب الأسفار، دار الكتب العلمية، (د.م،1978م)، ص772.

وظلت مراكش عاصمة الموحدين حتى أيام الواثق بالله أبي العلاء المعروف بأبي دبوس الذي دخلها، فقرّ أميرها المرتضى إلى آزمور، حيث مات قتيلاً في سنة665ه/1266م، ثم هاجمها أبو يوسف المريني فقتل أبي دبوس أمام أسوار مراكش ودخلها جيش بني مرين سنة 668ه/1269م[1].

لقد تأثرت مراكش بالفتن المتواصلة التي اشتغلت نيرانها في أواخر أيام الموحدين، واستولى الهدم والخراب على معظم ديارها وقد كتب أحد الشعراء على قصورها المهدّمة:-

ولقد مررت على رسوم ديارهم فبكيتها والربع قاع صفصـــف

وذكرت مجرى الجور في عرصاتهم فعلمت أن الدهر فيهم منـصـــف

فإن هذه المدينة قد شاخت قبل الأوان، حيث أن ثلثي سكانها لا يستطيعون أن يملكوا ولو شبراً واحداً من الأرض الصالحة للفلاحة، بذلك لم تكن مسكونة لأن الأراضي الفارغة فيها غرست بالنخيل والكروم، والأشجار المثمرة، وأيضاً بسبب تعسف الأعراب فضلاً عن الفتنة بسبب التغيرات في الحكم، وما أخذه بها بنومرين الذين استقروا بفاس، وأقاموا فيها بلاط ملكهم، وأرسلوا نائباً عنهم إلى مراكش.

وفضلاً عن إهمال الأثار، والجوانب العمرانية، وخاصة القصور الذي كان يعشعش فيها الحمام والبوم والغربان، كذلك إهمال البساتين التي أصبحت مزبلة للمدينة آنذاك، وخلاصة القول أن مدينة مراكش فقدت شهرتها القديمة وغدت مضطربة على الدوام بسبب الإعراب لكلما امتنع السكان عن إرضاء أقل رعنا بهم[2].

([1]) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، (الإسكندرية، د.ت)، ص11.

([2]) عبدالأحد السبتي، المدينة في العصر الوسيط، المركز الثقافي العربي، (بيروت، 1994م)، ص182.

رابعاً- مدينة الربـــــاط:

الرباط والمرابطة ملازمة تعز العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل رباطاً[1].

أما المعنى العام لهذه الكلمة فهو المكان الذي يرابط فيه جنود المسلمين للترصد إلى العدو والدفاع عن الحدود، قال تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمم مَّااسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[3].

تاريخ إنشائها:-

لقد بناها عبد المؤمن[4]، وسميت برباط الفتح[5]، وذلك تخليداً للانتصار الذي أحرزه الموحدون عام (592ه/1195م) على ألفونس الثامن ملك قشتالة عند الأرك[6].

ويرجع السبب في تشييده إياها إلى رغبة "عبد المؤمن" في إقامة معسكر ضخم قريب من شمال المغرب يستطيع إنجاد جيوشه بالأندلس، وقد وقع اختيار عبد المؤمن على مدينة "سلا" ليقوم على أرضها رباطه[7].

فابتدأ بإنشاء قصبة "الأودية"[8]، التي أقامها على مرتفع صخري بين منحنيات المحيط الأطلسي، وقد أنشأ عبد المؤمن بقصبة "الأودية" مسجداً وقصراً ومدرسة، ثم شيّد بجانبها بناءً واسعاً سمّاه رباط الفتح وأسكنه جنده[9].

وقد ذكر صاحب المعجب بأنه شرع في بنيان المدينة العظمى على ساحل البحر والنهر من العُدوة التي تلي مراكش، وكان أبو يعقوب رحمه الله هو الذي اختطها ورسم حدورها، وابتدأ في بنيانها، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها فشرع أبو يوسف، في بنيانها إلى أن أتم سورها[10].

وقد ورد في كتاب الاستبصار بأنها: مدينة كبيرة في سفح جبل، مشرفة على بسائطه، يشقها جداول المياه العذبة، وعليها سور عظيم بنى بالجير والحصى، يبقى مع الدهر، وهي في فسحة على 6 أميال، مابين جبال ينصبُّ إليها من تلك الجبال مياه كثيرة، وأنهار تسقي جميع بساتينها في أعلاها وأسفلها، ولها نظير كبير، كثير الزرع وجميع الفواكه والخيرات، ولا أعلم ببلاد الشرق والغرب بلداً أخصب منها ولا أكثر فوائد وسكنها البربر[11].

([1]) ابن منظور، أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، (بيروت، 1956م)، 1560/2.

([2]) سورة آل عمران، الآية 200.

([3]) سورة الأنفال، الآية 61.

([4]) عبد المؤمن بن علي الزناتي: مؤسس الدولة الموحدية بعد موت شيخه "محمد المهدي بن تومرت"، داعية الموحدين، بويع له بالخلافة بعد وفاة المهدي بن تومرت، حكم من سنة (541–558ه) = الجزنائي، المصدر السابق، ص42.

([5]) الدمشقي، شمس الدين، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى،(بغداد، 1923م)، ص235.

([6]) أحمد الشنتاوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مطبعة مصر،(القاهرة، 1934م)، 26/10.

([7]) وكانت الرباط في بدء أمرها تسمى "رباط سلا"، ثم سميت بعد ذلك رباط الفتح، ثم أضحت كلمة "الرباط" في عصرنا الحاضر علماً على حاضرة العرب دون حاجة إلى إضافات = عبد العزيز بن عبد الله، مظاهر الحضارة المغربية، (الدار البيضاء، 1957م)، ص29.

([8]) الأودية: يرجع إنشاؤها إلى سنة 540ه/1145م عقب فتح عبدالمؤمن مدينة فاس= مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص120.

([9]) علي عبد الله علاّم، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمؤمن بن علي، دار المعارف بمصر، (القاهرة، د.ت)، ص120.

([10]) المراكشي، المصدر السابق، ص380.

([11]) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص341.

هذا وقد أعطى الملك أمراً بأن كل مواطن فيها ينال مكافأة، الأمر الذي أدى اجتذاب الناس إليها، واستوطن بها العديد من الصنّاع والمثقفين والتجار[1].

وكان المنصور يسكن هذه المدينة من بداية شهر إبريل إلى شهر سبتمبر، ولما كانت المدينة قائمة في موقع يفتقر فيها الماء الجيد؛ لأن ماء البحر يختلف عنها بماء النهر وذلك لتصاعد موجة المد العالية لمسافة اثنى عشر ميلاّ في النهر، ونظراّ لأن مياه الآبار مالحة فقد جرّ المنصور إليها ماء عين واقعة على مسافة اثنى عشر ميلا من المدينة بواسطة قناة بديعة البناء، وتنقسم هذه القناة إلى عدة فروع تقود إحداها الماء إلى المساجد والمعاهد والقصور الملكية والأحواض العامة التي أقامت في كل الأنحاء[2].

وكذلك تم بناء الديار والأسواق، ولم يزل الخلفاء يحضونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات يلمون بها غاية الإلمام، ويجعلون لها حظاً وافراً من التشريف لها، بالاختصاص فيها والمقام، حتى غدت عراقاً، وتلاحق الناس بها لحاقاً وأشرقت الآمال فيها إشراقاً[3].

الحركة الفكرية:-

إن الموحدين يشجعون الحركة الفكرية في جميع مظاهرها، فكان عصرهم يمثل الذروة في النشاط الفكري في المغرب والأندلس وخاصة المغرب، وذلك لأسباب تعود إلى أن علماء وأدباء كثيرون هاجروا من القيروان والأندلس إلى المغرب إبان الحكم المرابطي، وفي عهد الموحدين لأسباب سياسية واقتصادية تمثلت في موارد الدولة الضخمة مكنتها من أن تصرف بسخاء على طلاب العلم،فتبني لهم المعاهد، وتضع تحت تصرفهم خزائن الكتب لينمّوا ثقافتهم، ويوسعوا مداركهم، وكان أمراء الدولة أنفسهم من كبار العلماء، كعبد المؤمن بن علي، والمنصور والمأمون، فكانت مجالسهم مجالس علم وأدب وسياسة في آن واحد[4]، كما اهتم الموحدين بعديد العلوم كعلوم القرآن والحديث والتاريخ والشعر.

المنشآت المعمارية:-

لقد تأثرت فنون الموحدين في العمارة والزخرفة تأثيراً عميقاً بالحضارة الأندلسية وتمكنت الأندلس من غزو المغرب فنياً وعلمياً في نفس الوقت الذي غزا المغرب في عصر الموحدين بلاد الأندلس عسكرياً.

وعصر الموحدين هو العصر الذي توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس، وانتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب، وظهرت في جميع الأبنية التي أقامها خلفاء الموحدين في المغرب مثل: جامع الكتبة بمراكش، وجامع القصبة، وجامع حسّان برباط الفتح وقصبة رباط الفتح[5].

سور رباط الفتح:-

لقد ذكر صاحب "الاستبصار" بأن عليها سور عظيم وقد بنى بالجير والحصى، ليبقى مع الدهر[6].

الدهر[6].

([1]) الوزان،المصدر السابق، ص202.

([2]) المصدر نفسه، ص208.

([3]) صاحب الصلاة، عبد الملك، المن بالإمامة، دار الأندلس، تحقيق عبد الهادي التازي، (بيروت، 1946م)، ص448-449.

([4]) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، (الدار البيضاء، 1984م)، 349/1.

([5]) ابن خلدون، المصدر السابق، 464/6.

([6]) مؤلف مجهول، ص186.

وقد شيّد هذا السور من طرف السلطان يعقوب المنصور الموحدي[1]، ويبلغ طوله حوالي أربعة أميال، وهناك بابان أثريان يرجع تاريخهما إلى ذلك العهد، أحدهما يُعرف بباب الرواح، أما الآخر فيوصل إلى القصبة "قصبة أوداية"[2].

وقد دُعم هذا السور بتحصينات وأبراج كثيرة، كانت تحيط بالأبواب بشكل خاص، وكانت تجعل من الرباط مدينة حصينة، ولم يغفل بناة هذا السور أن يجعلوا من أبوابه التي كانت تؤدي إلى داخل المدينة وخارجها قطعاً فنية، ولاشك أن الذي يقف أمام هذه الأبواب اليوم تدهشه روعة الزخرف القائم على التناسب في الأقواس، التي يغلب عليها أن تكون بشكل حذاء الفرس، والصخر المحفور حفراً دقيقاً، والجبس المقولب بشكل لا يترك زيادة المستزيد[3].

قصبة الأودية:-

كانت في الأصل قلعة محصّنة تم تشييدها من طرف المرابطين لمحاربة قبائل برغواطية، وازدادت أهميتها في عهد الموحدين، الذين جعلوا منها رباطاً على مصبّ وادي أبي رقراق وأطلقوا عليها اسم المهدية[4].

جامع حسّان بالرباط:-

لقد كان المنصور أكثر خلفاء الموحدين ولعاً بالعمارة والبناء، فشرع في بنيان مسجد كبير بالرباط، كبير المساحة، واسع الفناء جداً، لاأعلم في مساجد المغرب أكبر منه، وعمل له مئذنة في نهاية العلو، على هيئة منارة الإسكندرية، يصعد فيها بغير درج تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع مايحتاج إليه أعلاها، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف[5].

وكانت دولة الموحدين بعد انتصارهم في معركة الأرك قد بلغت ذروة قوتها وعظمتها، وكان من الطبيعي أن يعتز بطل الأرك بانتصاره، ويكتب عنه بلغة العمران والبناء، فمسجد حسّان ذو مساحة هائلة (180×140م)[6].

وكان لهذا المسجد ستة عشر باباً، وبه أكثر من مائتي عمود، علاوة على مافي المسجد من ثلاثة أروقة أخرى، ولايزال هذا المسجد معضلة من معضلات الفن المعماري، على الرغم مما كشفت عنه أعمال الحفر الحديثة، التي تمت بنجاح يتفاوت مقداره، ومابرحت مئذنة هذا المسجد التي ظلت هي أيضاً دون التمام، ولم يقم عليها قط تاجها موضع عجب الرحالة بسبب أبعادها الخارقة للعادة وهي تعرف الآن باسم برج حسّان[7].

وبعد وفاة المنصور أخذت هذه المدينة في التدهور، حتى أنه لم يبعد عنها سوى العُشر، فالقناة البديعة قُطعت ودُمِّرت أثناء الحروب التي شنها الملوك المرينيون ضد أسرة المنصور، فهي في أسوء حالٍ لم يصل إليها قط، واعتقد أنه من المتعذر جداً العثور فيها على أربعمائة دار مسكونة قرب القصبة، وبعض الدكاكين الصغيرة، وقصداً عن ذلك فهي مهدّدة باستيلاء البرتغاليين عليها[8].

([1]) محمد الراوي، الرباط، صحيفة الشرق الأوسط العدد 9402.

([2]) دائرة المعارف الإسلامية، 26/10.

([3]) نقولا زيادة، أفريقيات دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، (د.م، 1991م)، ص122.

([4]) محمد الراوي، المرجع السابق، العدد 9402 .

([5]) المراكشي، المصدر السابق، ص226.

([6]) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، 849/2.

([7]) دائرة المعارف الإسلامية، 27/26.

([8]) الوزان، المصدر السابق، ص202.

الخاتمة

نستخلص مما سبق التعرض له في متن هذا البحث لنشأة المدن الإسلامية من خلال مدن المغرب الأقصى الآتي:

- التدقيق في اختيار المكان المناسب للمدن الإسلامية، والتخطيط المعماري الضخم والراقي، الذي كان أساساً في صمود وتطور هذه المدن العظيمة إلى وقتنا الحاضر، مما يفند كتابات بعض المستشرقين الذين صوروا المدينة الإسلامية على أنها مدن قامت دون تخطيط مسبق، وهي مدن عشوائية عنوية إلى الفوضى أقرب، ذات أزقة ضيقة ومتيهة.
- أُسست هذه المدن بعد الفتح الإسلامي، باستثناء مدينة سبتة القديمة، التي يذكر أنها بنيت مكان مستعمرة فينيقية قديماً، وكان لها دور كبير في نشر الثقافة الإسلامية، فكانت هذه المدن تمثل الإرث الحضاري العميق، من حيث عمرانها، وإنشاء مراكز إسلامية بها، كانت محور إشعاع علمي إسلامي.
- حققت هذه المدن المتطلبات الإنسانية للسكان، والخصوصية، كما حققت مبادئ الاستدامة التي ينادي بها كل العالم حديثاً.
- المزج الفني الذي أوجده بناء المدن الإسلامية وتطورها في التوسع العمراني والذي تجسد في اشتراك عدة عناصر لها طرازها الفني الخاص مثل القرويين والبربر والأندلسيين، الذي كان منهم من أصل شامي، وهم المعروفين بالفن الشرقي الأصيل، قد أكسب المدينة طراز بربري أفريقي أندلسي.
- بفضل الاستقرار الذي منح للمغرب الأقصى جعل مدنه مركز إشعاع فكري وفني، إذ أن هذه المدن احتضنت بدايات معرفة العرب للعلوم في المغرب، حيث أن تلقي العلم بدأ مع قدوم الفاتحين الأولين، الذين كانت رغبتهم في فتح البصائر وهدايتها إلى الطريق القويم، وأتم الولاة والأمراء ما بدأه الفاتحون، حيث أسسوا مدناً ومساجداً أنارت المغرب بأكمله بالعلوم المختلفة، وخرَّجت آلاف الفقهاء والعلماء.

قائمـــة المصادر والمراجع

أولاً: المصـادر:-

. ابن الأثير، ابن الحسن، الكامل في التاريخ، دار صادر، (بيروت، 1958م).

. ابن بطوطة، أبو عبد الله بن محمد بن إبراهيم، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتب العلمية، (د.م، 1978م).

. ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، د.ن).

. ابن منظور، أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، (بيروت، 1956م).

. الإدريسي، محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة العربي، (القاهرة، 198،م).

. الأنصاري، محمد بن القاسم، اختصار التاريخ، (الرباط، 1983م)

. الجزنائي، علي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية.

. الدمشقي، شمس الدين، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثني، (بغداد، 1923م).

. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله، تذكرة الحفاظ، (بيروت، 1958م).

. السلاوي، أبو العبّاس، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، دار الكتاب، (الدار البيضاء، 1968م).

. صاحب الصلاة، عبد الملك المن بالإمامة، دار الأندلس، (بيروت، 1946م).

. القلقشندي، أبو العبّاس، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة الوطنية للتأليف، (القاهرة، 1963م).

. المراكشي، عبد الواحد، المعجب في أخبار المغرب، تحقيق، محمد العريان، (القاهرة، 1965م).

. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، (الإسكندرية، 1958م).

. مؤلف مجهول، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، مطبعة كوبرتل، (الجزائر،1920م).

. النويري، شهاب الدين، نهاية الإرب في فنون الأدب، المكتبة العربية، (القاهرة، 1984م).

. الوزان،حسن، وصف أفريقيا، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1983م).

. ياقوت الحموي، شهاب الدين، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، (بيروت،1990م).

ثانياً: المراجـــع:-

. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، (الدار البيضاء، 1984م).

. أحمد الشنتاوي، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، مطبعة مصر، (القاهرة،1934م).

أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، (طرابلس، 1991م).

. روجي لوطورنوا، فاس قبل الحماية، دار الغرب الإسلامي، (بيروت-199، م).

. سعدون نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب، دار النهضة، (بيروت، 1987م).

. سعيد علام، معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، (القاهرة-193، م).

. عبد الأحد السبتي، المدينة في العصر الوسيط، المركز الثقافي العربي، (بيروت، 1949م).

. عبد العزيز بن عبد الله، مظاهر الحضارة المغربية، (الدار البيضاء، 1957م).

. عبد العزيز سالم، المغرب الكبير في العصر الإسلامي، دار النهضة، (بيروت، 1982م).

. عبدالله علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، (القاهرة،1968م).

. عفيف البهنسي، العمارة العربية، المجلس القومي للثقافة العربية، (الرباط، د.ت).

. محمود إبراهيم عفيفي، الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب، دار الفكر العربي، (القاهرة، 2001م).

. مراجع الغناي، قيام دولة الموحدية، جامعة قاريونس، (بنغازي،1980م).

. نقولا زيادة، أفريقيا دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، دار النهضة، (بيروت، 1991م).

. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، (القاهرة، 1964م).

ثالثـــاً: الدوريات:-

محمد الراوي، (د.ت) الرباط، صحيفة الشرق الأوسط، العدد 9402.

رابعاً: الرسائل الجامعية:-

صلاح عبد السلام موسى، الحياة العلمية الثقافية بالمغرب الأقصى في عصر المرينيين، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة طرابلس، 2017م).